القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وقعة صفين

عبد الحميد جودة السحار

١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْى عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعْ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُون » .

(قرآن كريم)

١

انتصر الإمامُ عليٌّ في موقِعَةِ الجمل ، وقُتِلَ طلحةُ والزُّبَيْر ، وعادتْ عائشةُ إلى المدينةِ مُعززَةً مُكرَّمَة ، وبايعَ النّاسُ عَليّا ، فاجتمعَ له بَيْعَةُ أهلِ الحرَمين ، وأهلِ العراق ، وأهلِ الحجاز ، وأهلِ اليَمن ، وأهلِ مصر ، ولم يبقَ إلاّ أهلُ الشّام ، فأرسلَ إلى مُعاوية ، الذى كان واليًا على الشّامِ من قِبَلِ عُثمانَ بنِ عفّان ، كتابًا جاء فيه .

« بسم اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم .

فإنَّ بيْعتى بالمَدينةِ لزِمتْكَ وأنتَ بالشّام ، لأنّه بايَعنى القومُ الّذين بايعوا أبا بكر وعمرَ وعُثمان ، على ما بايعوا عليه » .

وطلب منه أنْ يَدخلَ فيما دخـلَ فيـه المسـلمون ، وإلاّ قاتله حتّى لا تتفرّقَ كلِمةُ المسلمين .

كان معاويةُ يطمعُ فى الخلافة ، فـرأى أن يسـتعينَ بذوى الرّأى فى مناوأةِ علىّ ، فأرسلَ إلى عمـرو بـن العاص ، فلمّا جاء إليه ، طلب منه أن ينضمَّ إليه فـى مناوأةِ علىّ ، فطلب عمرٌو منه أن يجعلَـه واليًا على مِصـر ، فقبلَ معاويـةُ ذلـك ، فـانضمَّ عمـرٌو إليـه ، وأخـذا يَعمـلان على تـأليبِ أهـلِ الشّـامِ على أميرِ المؤمنين .

أشارَ عمرٌو على معاويةَ أن يُقنِـعَ شُـرَحبيلَ ، رأسَ أهلِ الشّام ، أنَّ عليًّا قتل عثمان ، فأرسلَ معاويةُ إلى شُـرَحْبيلَ رجـالاً يُخبرونَـه أنَّ عليًّا قتـلَ عثمـانَ بـنَ عفّان ، فغضِبَ شُرَحبيل ، وثارتْ نفسُه ، وتيقّـنَ أنَّ الإمامَ قتلَ عثمان ، دون أن يفطُنَ إلى أنَّ مُعاويةَ هـو الذى دسَّ هؤلاء الرِّجال ، ليقولوا له ذلك ، فرجـع شُرَحْبيلُ إلى معاوية ، وقال له فى انفعال :

ـ يا معاوية ، أبى النّاسُ إلاّ أنّ عليًّا قتلَ عثمان ، ووالله لئنْ بايعتَ له لنُخرجنّكَ من الشّام أو لنقتلنّك .

فقال معاوية :

ـ ما كنتُ لأخالفَ عليكم ، وما أنا إلا رجلٌ من أهلِ الشّام .

وراح شُرَحْبيلُ يسيرُ في مدائنِ الشّام ، ويُنادي في النّاس ، بأنّ عليًّا قتل عثمان ، وأنه يجبُ على المُسلمينَ أن يطلُبوا بدمِه ، وكان يقومُ خطيبًا فيقول :

ـ يأيُّها النّاس ، إنّ عليًّا قتل عثمانَ بنَ عفّان ، وقد غضِب له قومٌ فقتلَهم ، وهزمَ الجميع ، وغلب على الأرض ، فلم يبق إلاّ الشّام ، وهو واضعٌ سيفَه على عاتقِه (على كتفِهِ) ثم خائضٌ بِه غمارَ الموت ، حتّى يأتيَكم ، أو يُحدثَ اللّهُ أمرا ، ولا نجدُ أحدًا أقوَى على قتالِه من معاوية ، فجدُّوا وانهضُوا .

وتأهَّب أهلُ الشَّام لقتال علىٍّ أميرِ المؤمنين ، ولم يدُرْ برأس أحدِهم أنَّ معاويةَ هو الذى حرَّكهم لقتال الإمام ، ليُثبِّت مُلكَه على الشَّام ، وقرَّتْ عينُ معاويةَ لمّا وجدَ جيوشَ الشَّام رَهنَ إشارتِه .

٢

بلغ معاويةَ أنَّ عليًّا سارَ بأهلِ العراق ، ونزل بالنُّخيلَة ، وعسكرَ بها ، فذهب إلى المسجد ، وصعِدَ إلى المِنبر ، وكان قد ألبسَه قميصَ عثمانَ وهو مُخضَّبٌ بالدَّم ، فوجد حولَه الشيوخَ يبكون ، لا تَجفُّ دموعُهم على عثمان ، فصعِد المِنبر ، فقال :

ـ يأهلَ الشَّام ، قد كنتُم تُكذّبوننى فى علىّ ، وقد استبانَ لكم أمرُه . واللّهِ ما قتل خليفتكم غيرُه ، وهو أمرَ بقتله ، وألَّبَ النَّاسَ عليه ، وآوى قتلتَه ،

وهم جندُه وأنصارُه وأعوانُه ، وقد خرج بهم قاصدًا بلادَكم وديارَكم لإبادتِكم ؛ يأهلَ الشّام ، اللّـهَ اللّـهَ فى عثمـان ، فأنا ولىّ عثمـان ، وأحقُّ مـن طلـب بدمِه ، وقد جعلَ اللّهُ لولىِّ المظلومِ سلطانا ، فـانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع به القـومُ ما تعلمـون ، قتلوه ظُلمًا وبَغْيا ، وقد أمرَ اللّهُ بقتال الفئةِ الباغية ، حتى تفيءَ إلى أمرِ اللّه .

وسـارَ الإمـامُ فى خمسينَ ومائةِ ألـفٍ مـن أهـلِ العراق ، وسار معاويةُ فى نحوٍ من ذلك من أهلِ الشّامِ ، وسبق معاويـةُ عليًّا إلى صِفّين : فنزل أهلُ الشامِ منزلاً اختاروه ، بحيث كان الماءُ فـى أيديهـم ، وقد قرَّ رأيهُم على أن يمنعوا أهلَ العراق الماء .

وبلغَ الإمـامُ علىٌّ صِفّين ، ونـزل بـالقربِ مـن جيـوشِ الشّـام ، وأرادَ رجالُـه أن يشربوا ، فمنعهـم أهلُ الشّام ، فذهبـوا إلى الإمـام ، وأخبروه بذلـك ،

فأرسلَ الإمامُ إلى معاويةَ رسولاً يقولُ لـه : خـلِّ بين النَّاسِ وبينَ الماء .

فقام معاويةُ في جيشه ، فقال :

ـ يأهلَ الشّام ، هذا واللّهِ أَوَّلُ الظَّفَر (النصر) ، لا سقاني اللّهُ وسقَى أبا سفيان ، إن شربوا منه حتـى يُقتَلوا بأجمعِهم عليه .

فقال رجلٌ من أنصارِ الإمام له :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القومُ ماءَ الفُراتِ وأنـتَ فينا ومعنا السيُّوف ؟

وهجم أهلُ العراق على أهـلِ الشّام ، فـأزالوهم عـن المـاء ، وأصبحَ المـاءُ فـي أيـدى أهلِ العـراق ، فقالوا :

ـ واللّه لا نَسْقيهم .

وبلغ ذلك الإمام ، فأرسل إلى رجالِه يقول :

ـــ خُـذوا مـن المـاءِ حـاجتَكم ، وارجعــوا إلى عسكرِكم ، وخلوُّا بينَهم وبـينَ المـاء ، فإنَّ اللّـهَ قـد نصرَكم ببغيهم وظلمِهم .

منع معاويةُ عليًّا الماءَ لمّا كان الماء في يـده ، ولكـنَّ عليًّا الرَّجلَ الكريم ، قد خلّى بين أعدائِه وبين الماء ، لمّا أصبح الماءُ في يدِه ؛ فما جاء عليٌّ إلى الشّامِ ليقتُلَ النّاس ، بل جاء وهو يُريـدُ أن يجمعَ المسلمينَ على إمام واحد ، حتّى لا تتفرَّقَ كلمتُهم ويدِبَّ الضعـفُ فيهم .

٣

أَشفق الجميعُ من الحرب ، وخرج قُرّاءُ أَهلِ العراق ، وقُرّاءُ أَهلِ الشّام ، وعسكروا ناحيةَ صِفّين ، وذهب قرّاءُ أَهلِ العِراقِ إلى معاويةَ فلمّا دخلوا عليه قالوا له :

ــ يا معاوية ، ما الذى تطلُب ؟

ــ أطلبُ بدمِ عثمان .

ــ مِمّن تطلبُ بدمِ عثمان ؟

ــ من عليّ .

ــ وعليٌّ عليه السلامُ قتلَه ؟

ــ نعم ، هو قتلَه وآوَى قاتليه .

وانصرفوا من عِندِه ، فدخلوا على عليّ ، فقالوا :

ــ إنَّ معاويةَ يزعُم أَنَّك قتلتَ عثمان .

ــ اللّهمَّ يكذبُ فيما قال .. لم أقتله .

واستمرَّت السِّفاراتُ ثلاثةَ أشهر ، واستمرَّ الإمامُ يجادلُ رسُلَ معاوية ، ليُقنعَهم أنَّه لم يأمرْ بقتل عثمان ، ويدعوهم إلى كتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنَّ رسُلَ معاويةَ لم يقتنعوا ، وخرجوا من عِندِه وقد عزموا على الحرب ، فقال الإمام :

ــ « إنَّك لا تُسمعُ الموتَى ، ولا تُسمعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا ولَّوا مُدْبرين ، وما أنتَ بهادى العُمْى عن ضلالتِهم ، إن تُسْمِعْ إلاّ من يؤمنُ بآياتِنا فهم مُسلمون » .

٤

تَـأَهَّب الجيشـانِ للقتـال ، ثـم اختلـطَ الرِّجـال ، ونشِبتِ الحرب ، وسقط الرِّجال قتلَى ، فقام الإمـامُ بين الصَّفين ثم نادى :

ــ يا معاوية ! يا معاوية !

فقال معاوية :

ــ اسألُوهُ ما شأنُه ؟

فقال عليّ :

ــ أُحِبُّ أن يظهرَ لى ، فأكلِّمَهُ كلمةً واحدة .

فخرج بين الصَّفين معاويةُ ومعه عمرُو بنُ العاص ، فلمّا قاربـا الإمــام ، لم يلتفـتْ إلى عَمــرو ، وقـال لمعاوية :

ــ ويحك ! علامَ يقتتلُ النّاسُ بينى وبينَك ، ويضربُ بعضُهم بعضا ؟ ابرُز إلىّ فأيُّنا قتل صاحبَه فالأمرُ له .

فالتفتَ معاويةُ إلى عَمرو بن العاص ، فقال :

ــ ما ترى يا أبا عبدِ اللّه ، أُبارِزُه ؟

فقال عمرٌو فى دَهَاء :

ــ لقد أنصفكَ الرَّجُل .

فقال معاويةُ لعمْرو :

ــ يا عَمرَو بنَ العاص ، ليس مثلى يُخدَعُ عن نفسِه ، واللّه ما بارَزَ ابنُ أبى طالبٍ رجلاً قط إلا سقَى الأرضَ بدمِه .

خاف معاويةُ أن يُبارِزَ عليًّا ، فانصرف راجعا دونَ أن يتكلّم ، وظلَّ يخترقُ صفوفَ جيشه وهو خائف ، حتى انتهى إلى آخرِ الصُّفوف وعمرٌو معه ، فلما رأى علىٌّ عليه السَّلام ذلك ضحك وعاد إلى موقِعه .

وزحف الناس بعضُهم إلى بعض ، فارتَموا بالنَّبل والحجارة ، ثم تطاعنوا بالرِّماح حتى تكسَّرت ، ثم مشى الناسُ بعضُهم إلى بعض بالسَّيف وعَمَد الحديد ، فلم يسمع السَّامعُ إلا وقعَ الحديدِ بعضِه على بعض ، وراح الإمامُ يغوصُ في صفوفِ الشّام ، يضربُ بسيفِه ، ثم يخرجُ به منحنيا ، وفطَنَ معاوية أنَّ عليًّا سينتصرُ عليه إذا استمرَّ القتال ، فالتفتَ إلى عمرو بن العاص ، وقال :

ـ ما ترى ؟

فقال له عمرو :

ـ إنَّ رجالَك لا يقومون لرجالِه ، ولستَ مثلَه . هو يقاتلُ على أمر ، وأنت تقاتلُ على غيره ؛ إنك تريدُ البقاءَ وهو يريدُ الفَناء ، وأهلُ العراق يخافون منك إن ظفِرتَ بهم ، وأهلُ الشّام لا يخافون عليًّا إنْ ظفِر بهم ، (لأنَّ عليًّا رجلٌ كريمٌ فلن يعذِّبَهم) . ولكن ألقِ إليهم أمرًا إن قبِلوه اختلفوا ، وإن ردّوه

اختلفوا ، اُدعُهم إلى كتابِ اللّه حَكَمًا فيما بينك وبينهم .

وربط معاويةُ وأهلُ الشَّامِ المصاحفَ على أطرافِ الرِّماح ، ورفعوها ، فنظر عليٌّ وأهلُ العراق ، فإذا بالمصاحفِ مرفوعة ، ثم قامَ رجالٌ من أهلِ الشَّامِ ونادوا :

ـــ يا معشرَ العرب ، اللّهَ اللّهَ في نسائِكم وبناتِكم ، فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غدًا إذا فنيتُم ؟ اللّهَ اللّهَ في دينكم . هذا كتابُ اللّهِ بيننا وبينكم .

فقال عليٌّ :

ـــ اللّهمَّ إنك تعلمُ أنّهم ما الكتابَ يريدون ، فاحكُم بيننا وبينَهم ، إنَّك أنت الحكمُ الحقُّ المبين .

لم يشأْ عليٌّ أن يُخدعَ بخُدعةِ ابنِ العاص ، أراد أن يُقاتلَ معاوية ، حتى يتمَّ له النصر ، ولكن جاءه زهاءُ

عشرينَ ألفًا مـن أهـلِ العراقِ مقنَّعينَ فى الحديـد ، شاكى السِّلاح ، سيوفُهم على عواتقِهم ، فقالوا له :

ـ يا علىّ ، أجبِ القومَ إلى كتابِ اللّهِ إذا دُعيتَ إليـه ، وإلا قتلناكَ كما قتلنا ابنَ عفّـانَ ، فواللّـه لنفعلنَّها إنْ لم تُجبْهم .

وصاحَ صائحٌ مِمَّن كانوا يروْنَ استمرارَ القتال ، حتى يتمَّ النَّصرُ لعلىٍّ وأهلِ العراق :

ـ خُدِعتُم واللّه فانخدعتُم ، ما أنتُم برائين بعدها عِزًّا أبدا .

فسَبُّوه وسَبَّهم ، فصاح بهم علىٌّ فكفّوا ، ثم تصايح الرَّاغبونَ فى التحكيم :

ـ إن عليًّا أميرَ المؤمنينَ قد رَضِىَ بحُكم القرآن .

واضطُرَّ الإمامُ بعد أن اختلفَ أنصارُه أن يقبلَ التحكيم ، ونجحت خُدعةُ عمرِو بنِ العاص .